المحاضرة الأولى:

مدخل إلى مفهوم الدراسات الثقافية (1)

تمهيد:

يشكل مفهوم الثقافة مفهوما جوهريا في مجال الدراسات الثقافية، فالتخصص بأشمله يتمحور حول هذا المفهوم، مبتغيا عدة أهداف تتراوح بين ضبطه من جهة، وإعادة صياغته وفقا لما تتطلبه شروط البحث في كل الحقول المرتبطة بالدراسات الثقافية من جهة ثانية، ومن جهة ثالثة فإن الأمر قد يصل إلى حد إعادة نقد المفهوم بشكل جذري من أجل إبداله بمفاهيم أخرى. هكذا إذن، تسعى الدراسات الثقافية بوصفها حقلا علميا متعدد التخصصات إلى تقديم قراءة جديدة لمفهوم الثقافة وآليات اشتغالها لا بوصفها بنية جامدة، وإنما باعتبارها أداة لممارسة الفعل اليومي، وبذلك فهي في نظر الدارسين الثقافيين شيئا يتم إنتاجه بشكل متجدد.

إن هذا الفهم يجعل من الدراسات الثقافية لا تقبل بمفاهيم الثقافة التي تحصرها التخصصات الفرعية المندرجة تحت رايتها ضمن زاوية ضيقة، وإنما تفتح أفق هذا المفهوم إلى رحاب واسعة ضمن منظور كلي، لا يمس الجوانب النظرية فحسب، بل ويثوّر الأدوات المنهجية المختلفة المستقاة من هذه التخصصات الفرعية ويدمجها أحيانا بطريقة تعطيها روحا مبتكرة لا تعرف حدودا ترسمها التخصصات. إن هذا ما يجعل من الدراسات الثقافية كمفهوم يحيل إلى تخصص بحثي شيئا صعب التحديد.

1- مفهوم الدراسات الثقافية:

يكفي أن نقرأ مصطلح الدراسات الثقافية لنستشف منه بأن الأمر لا يتعلق بتيار بحثي واحد بقدر الحديث عن تشابك بين أساليب وتوجهات فكرية متعددة، وهذا هو بالفعل حال الدراسات الثقافية، فهي عبارة عن نقطة التقاء لباحثين يشتركون في نقطة ما وإن كانت منطلقاتهم البحثية متباينة. يستخدم ستيوارت هال لوصف ما تحتويه الدراسات الثقافية من مشارب متعددة مصطلح "الضجيج النظري"، وبأنها تَشكُّلٌ خَطابيٌّ بالمعنى الفوكوي بحيث ليس لها أصول[1]. المقصود بطبيعة الحال ليس أنها منعدمة هذه الأصول، بل انعدام الأصل الواحد، فهي متأتية من مشارب علمية عديدة بينها من التباعد أكثر مما بينها من التقارب. أكثر من ذلك، يصفها

[1]- ستيوارت هال: الدراسات الثقافية وإرثها النظري، في: خالدة حامد: غبش المرايا: فصول في الثقافة والنظرية الثقافية، منشورات المتوسط، ميلانو، 2016، ص ص 58-59.

غافين كيندال وغاري ويكهام بأنها كانت حربا ضد الممارسات العلمية السائدة وبأنها ذات طبيعة ضد-علمية[1]. لقد شكلت الدراسات الثقافية مسارا مميزا وجديدا اختلف من ناحية الممارسة والمخرجات عن أغلب التيارات التي كانت معاصرة له، ولذلك فقد كانت النظرة السائدة نحوها تعتبرها شيئا ما خارج العلم.

يتفق الجميع على أن تعريف الدراسات الثقافية يتطلب أولا المرور على جرد للأدبيات التي تشكلها، فكل من زيودين ساردار وبورين فان لون يدرجان في خانة الدراسات الثقافية الكثير من الأفكار العلمية القادمة من علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا، علم النفس، اللغويات، النقد الأدبي، نظرية الفن، الفلسفة... إلخ وغير ذلك، ويضيفان بأن أي نمط من أنماط منهجية التحليل النصي أو أنماط الأنثروبولوجيا الوصفية، أو أنماط التحليل النفسي التي توجه إلى البحث الفحصي يمكن استخدامه في مجال الدراسات الثقافية[2].

تتعامل الدراسات الثقافية بالأساس مع النصوص، ولكنها ترفض التقيد بالحدود التي يرسمها البنائيون مثلا في فهمهم للنص، فقد كسرت الدراسات الثقافية مركزية النص وحولت الانتباه إلى مفهوم الخطاب، فالنص يؤخذ من حيث ما يتحقق فيه وما ينكشف عنه من أنظمة ثقافية، وهو بذلك يستحيل إلى وسيلة وأداة ومادة خام تستخدم لاستكشاف أنماط معينة، والغاية النهائية للدراسات الثقافية في نظر سمير الخليل هي الوقوف على عمليات إنتاج الثقافة وتوزيعها واستهلاكها[3]. بهذا الشكل، فإن الدراسات الثقافية ليست علوما بحتة للنص، بل هي تتبع علمي رصين لميلاد النص ونشوئه وبلوغه أهداف وجوده الاجتماعي، مع ما يحيط بذلك من علاقات تأثير وتأثّر متشعبة.

يزيد مثل هذا الوصف من صعوبة تقديم تعريف دقيق ومركّز لماهية الدراسات الثقافية، فلورنس غروسبيرغ مثلا في محاولته لتقديم تعريف لها يقول: "يهتم مجال الدراسات الثقافية بوصف والتدخل في الطرق التي تنتج وتشتغل من خلالها وداخلها النصوص والخطابات والممارسات الثقافية ضمن الحياة اليومية للأفراد والمؤسسات داخل المجتمع"[4]، في حين يعرفها

---

[1]- Gavin Kendall & Gary Wickham: Understanding culture: cultural studies, order and ordering, Sage Publications, London, 2001, p.5.

[2]- زيودين ساردار وبورين فان لون: الدراسات الثقافية، ترجمة: وفاء عبد القادر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص 11.

[3]- سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2016، ص 165.

[4]- Lawrence Grossberg: "Cultural studies", In. Wolfgang Donsbach (ed): The international encyclopedia of communication, Wiley-Blackwell, Oxford, 2008, p. 1111.

آلان جونسون باعتبارها فرعا من السوسيولوجيا يركز على البحث في عمليات إنتاج ومعايشة الثقافة داخل المجتمع، وبالتحديد كيفيات تشكل الثقافة من طرف المؤسسات الاجتماعية على غرار الدولة والاقتصاد[1].

نلاحظ أن كلا التعريفين يتسمان بالعمومية، فهما يربطان مفهوم الدراسات الثقافية بالدراسة الكليانية لتشكلات الفعل الثقافي باعتباره عملية وليس بنية جاهزة، والانطلاق من هذا التصور للثقافة يفتح آفاقا واسعة أما دارسي الثقافة لاقتفاء أثر هذه العمليات وتفكيك المؤثرات التي تساهم في صياغة العمليات الثقافية، وهذا الأمر يفسّر لماذا اتسم حقل الدراسات الثقافية بمثل هذه الشمولية والقدرة على استيعاب التخصصات العلمية المختلفة.

إن أفضل وأشهر تعريف للدراسات الثقافية يمكن الاستئناس به ورغم عموميته هو أيضا هو ذلك الذي قدمه ستيوارت هال، والذي يرى فيه بأن الدراسات الثقافية هي "تشكل خطابي من الأفكار والصور والممارسات التي توفر طرقا للحديث عن أشكال المعرفة والسلوك المرتبطة بموضوع معين أو نشاط اجتماعي، أو موقع مؤسسي في المجتمع"[2]. إن ما يتحدث عنه هال بوصفه دراسات ثقافية هو على درجة عالية من التعقيد، ولكن يبقى الأهم في نظره هو ما تخرج به الدراسات الثقافية من خلاصات معرفية متنوعة عن كل شكل لإنتاج المعرفة وتوظيفها داخل المجتمع بغض النظر عن كل ما ينجرّ عن هذا من تداخل مع تخصصات أخرى كالسوسيولوجيا.

يرفض إدوارد سعيد على سبيل المثال فكرة ارتباط الدراسات الثقافية بالسوسيولوجيا، فهو يعتبر بأن الدراسات الثقافية هي كل ما ليس بسوسيولوجيا ماركسية فيما يتعلق بدراسات الثقافة، ويعرف منهجها على هذا النحو بأنه النظر إلى ما هو خاص في النص كطريق لاكتشاف مناهج جديدة في تحليل العلاقات بين تأليفه وأفكاره المطروحة[3]، وهذا بالتحديد هو تصور دور الدراسات الثقافية وفقا لتصور المدرسة الإنجليزية التي كانت وراء نشأة هذا الحقل.

على العموم، لا يمكن تقديم تعريف واحد جامع وشامل للدراسات الثقافية، فهي تبقى عملا تجميعيا لمحاولات عقلية مستمرة ومختلفة تنصب على مسائل عديدة وتتألف من أوضاع سياسية وأطر نظرية مختلفة ومتعددة، وهي أقرب لأن تكون "وحشا" يتكون من أشياء عديدة،

[1]- Allan Johnson: The Blackwell dictionary of sociology, Blackwell Publishers, Malden, 2000, p. 72.

[2]- مبارك الجابري (محرر): خارج الأسوار: أوراق في الدراسات الثقافية، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، مسقط، 2022، ص 31.

[3]- سمير الخليل: مرجع سابق، ص 168.

وليس من شيء واحد[1]. لهذا السبب، فإن أفضل طريقة لكي نصل إلى فهم ما تعنيه الدراسات الثقافية تحديدا هي أن نقدم جردا –لن يكون كاملا على الدوام- لمختلف التيارات الفكرية والبحثية التي يمكن إدراجها في خانتها، فهي تضم السوسيولوجيا، النقد الأدبي، النقد الثقافي، ما بعد البنيوية، التفكيك، المدرسة النقدية، الدراسات العرقية، الدراسات الإعلامية، دراسات السينما والفيلم، نظرية الجندر، النظرية النسوية، ما بعد الكولونيالية، الثقافات الشعبية، الفلكلور، الإثنوغرافيا، التاريخ الثقافي، التحليل النفسي، التحليل البصري، تحليل الحياة اليومية، الفروقات الجنسية... وغير ذلك.

إن جرد هذه التيارات لا يحيط بدقة بمفهوم الدراسات الثقافية، فهذه الأخيرة تمتلك ميزة هامة من الناحية الفكرية والمنهجية كونها على درجة عالية من التقبل للأفكار الجديدة وتحدي النظريات والأفكار القديمة، وهي تعلي رايتها فوق بقية التخصصات التي بقيت جامدة من جراء تمسكها الشديد بالضوابط المنهجية في مقابل عجزها عن فهم الكثير من الظواهر التي تطورت في خضم الحياة اليومية.

2- تطور البحث في مجال الدراسات الثقافية:

لم يأخذ تطور حقل الدراسات الثقافية شكلا خطيا يمكن تصنيفه إلى مراحل متتالية، بل سار هذا التطور في اتجاهات متشعبة أصبح من الصعب معها الحديث عن حقب تاريخية أو مراحل تتوالى فيما بينها. على العموم، يجري الحديث كثيرا عن مرحلة نشأة خرج فيها حقل الدراسات الثقافية للعلن لأول مرة تحت هذا المسمى، وما تلاه كان عبارة عن بحوث في كل الاتجاهات بالاستعانة بكل الأطر الفكرية والمنهجية المتاحة.

ترجع النشأة الأولى لمجال الدراسات الثقافية مرتبطة ببزوغ ملامح معهد برمنجهام للدراسات الثقافية المعاصرة الذي تأسس عام 1964، ففي سنة 1958 ظهر كتابان لكل من ريتشارد هوغارت تحت عنوان "استخدام الأدب" وريموند ويليامز بعنوان "الثقافة والمجتمع"، بحيث اهتم هوغارت ضمن كتابه بالبحث في تأثير وسائل الإعلام التجارية على ثقافة العمال، في حين حاول ويليامز الغوص في تاريخ الثقافة[2]، وقد كان لهذين العملين أثر كبير على كل ما تلاهما من بحوث في مجال الدراسات الثقافية على اعتبار أنهما فتح العيون على مواضيع ومشكلات من نوع آخر جرى

[1]- زيودين ساردار وبورين فان لون: مرجع سابق، ص 12.

[2]- Bryan Turner: The Cambridge dictionary of sociology, Cambridge University Press, London, 2006, p. 110.

التعامل معها في الغالب وفقا لمقاربات فكرية ومنهجية مختلفة، مما قاد إلى ما يمكن أن نطلق عليه "انفجارًا" في حقل الدراسات الثقافية.

ويمكن إقحام بحوث المدير التالي لمعهد برمنجهام، ستيوارت هول، ضمن مرحلة التأسيس، فقد فضّل الاستمرار في خط سابقيه مع تركيزه على ظاهرة وسائل الإعلام، والتلفزيون تحديدا، وبرأي أنجيلا ماكروبي، فإن أجندة البحث التي طورها هال تمحورت حول ثلاثة مواضيع مهمة للغاية هي: زمن التلفزيون، الشعبوية المستبدة التي مثلها حكم مارغريت تاتشر، والتعددية الثقافية، مستعينا في بنائه لفكرة جامعة بين هذه المواضيع برؤية الفيلسوف الفرنسي لويس ألتوسير حول الإيديولوجيا[1]. كانت أفكار ستيوارت هال تستلهم من ألتوسير تصوره لوجود أجهزة إيديولوجية تعمل على حماية الوضع الراهن والدفاع عن مصلحة من يديرون المجتمع، وهذا بالتحديد هو الدور الذي أسنده لوسائل الإعلام في السياق البريطاني.

ويمكن اعتبار إسهام ستيوارت هال منعرجا مهما في حقل الدراسات الثقافية على اعتبار أنه حول وجهة بوصلة الاهتمام من مجال الأدب إلى مجال وسائل الإعلام، وقد أفرز ذلك عن زيادة كبيرة في عدد البحوث التي تناولت بالبحث كل ما هو إمتاعي وجماهيري واستعراضي فيما تقدمه وسائل الإعلام، وظهور الثقافة السمعية البصرية والشعبية عبر الميديا، وذلك وفقا لقناعة بأن للأمر علاقة وثيقة بمسألتي الوعي والسلطة داخل المجتمع[2].

ويشير بريان تورنر إلى أن البحث في الدراسات الثقافية ازدهر في سنوات السبعينيات والثمانينيات بفضل تطور الماركسية الأوروبية التي استفادت من أحداث 1968، ومما أضحى يسمى كذلك بـ"النظرية الفرنسية" Frensh Theory ممثلة في أبحاث رولان بارت، لويس ألتوسير وميشال فوكو، قبل أن تتأسس مجلة معهد برمنجهام المسماة "النظرية، الثقافة والمجتمع" التي قدمت الكثير من الأبحاث تحت إدارة مايك فيذرستون بدءا من الثمانينيات، بالموازاة مع انتقال البحث في الدراسات الثقافية إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا، وفي أمريكا على سبيل المثال تم فتح مساقات بحث جديدة على غرار العرق، الجندر، التهميش والذوات المقموعة[3].

3- خصائص الدراسات الثقافية:

[1]- Angela McRobbie: The uses of cultural studies, Sage Publications LTD, London, 2005, p. 10.

[2]- سمير الخليل: مرجع سابق، ص 166.

[3]- Bryan Turner: Op. Cit, p. 110.

على خلاف بعض التخصصات المتميزة والمنفردة من ناحية الموضوع والمنهج، فإن الدراسات الثقافية بطابعها التجميعي والشامل تتوفر على خصائص وميزات بارزة، وعلى الرغم من صعوبة تحديد ما تعنيه الدراسات الثقافية فهذا لا يعني بأن وصف الدراسات الثقافية يطلق على أي شيء، فبعد سنوات من البحث فيها يكاد يكون هناك إجماع على أن لها موضوعات واضحة وأهدافا تسعى لتحقيقها. ويمكن وسم الدراسات الثقافية بالخصائص التالية[1]:

- تقع مشكلة السلطة في صلب اهتمام الدراسات الثقافية، فهي في تحليلها للثقافة وللأفعال الثقافية تحاول على الدوام البحث في الخلفيات السياسية المرتبطة برهان السلطة والهيمنة ضمن النصوص الثقافية واختبار تأثيرها عليها.

- تحدد الدراسات الثقافية لنفسها هدفا وغاية أساسية هي فهم الثقافة في مختلف أشكالها البسيطة والمركبة، وذلك على الرغم من الغموض الذي يكتنف ماهية الثقافة في حد ذاتها، بالإضافة إلى هدف آخر على صلة بالثقافة دائما وهو تحليل السياق المنتج لها سياسيا أو اجتماعيا.

- تتميز الدراسات الثقافية بكونها نقدا سياسيا، فهي لا تهدف فقط لوصف الأفعال والممارسات الثقافية وإنما تصويبها كذلك ونقدها في حالة حيادها على معايير معينة، وبذلك فهي أقرب لأن تكون التزاما فكريا وبراغماتيا نحو الواقع الثقافي.

- تسعى الدراسات الثقافية لتسليط الضوء على الانقسام الحاصل في المعرفة بين ما هو محلي وبين ما هو عالمي، وبالنظر لطابع الالتزام فهي ترافع على الدوام من أجل احترام الخصوصيات الثقافية المحلية في مقابل المد الثقافي العالمي.

- تسعى الدراسات الثقافية للارتقاء أخلاقيا بالمجتمع وبالعمل السياسي، ومن ثمة دورها الناقد تجاه المغالطات والمساعي الهادفة للهيمنة ومحاولة التصدي لها، ففي النهاية فإن دارسي الثقافة يسعون على الدوام لرسم الطريق لمجتمع أفضل.

[1] - زيودين ساردار وبورين فان لون: مرجع سابق، ص 13.

قراءات إضافية:

- مبارك الجابري (محرر): خارج الأسوار: أوراق في الدراسات الثقافية، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، مسقط، 2022.

- مصلح التجار (محرر): الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الكولونيالية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2011.

- محمد مفضل (مترجم ومحرر): الدراسات الثقافية: التمفصل، الهيمنة والصراع، دار شهريار للنشر والتوزيع، البصرة، 2019.

- Peter Pericles Trifonas & Susan Jagger: Handbook of Cultural Studies and Education, Routledge, London, 2019.

- Maxime Cervulle & Nelly Quemener: Cultural Studies, Armand Colin, Paris, 2018.

المحاضرة الثانية:

مدخل إلى مفهوم الدراسات الثقافية (2)

تمهيد:

يشير مفهوم الدراسات الثقافية في حد ذاته إلى وجود تعددية في المفهوم، فلا يمكن على الإطلاق تصور أن كلمة دراسات تتضمن نسقا واحدا من البحث بقدر استيعابها للعديد من الأبحاث التي شكلت في النهاية مزيجا غير محدود من الأفكار. هكذا هي الطبيعة الأصلية لحقل الدراسات الثقافية منذ نشأته، فهو لم يحدد نقطة انطلاق ولا نهاية محددتين، بل سار الأمر بشكل عفوي بعد أن حاول جيل التأسيس وكل من تلاهم الخوض في كل الاتجاهات المعرفية واختبروا بعض تصوراتهم الأساسية على تشكيلة متنوعة من المواضيع، مستهدفين غاية واحدة هي التأكيد على أن مشكلة الثقافة أعمق بكثير مما قد تتصوره بعض الحقول المعرفية. لقد كانت الدراسات الثقافية بالفعل أقرب إلى ثورة على الاختزالية التي قزمت من مفهوم الثقافة.

1- التيارات الكبرى للدراسات الثقافية:

تعد أي محاولة لتصنيف التيارات الكبرى المشكّلة لحقل الدراسات الثقافية معضلة إبستيمولوجية حقيقية بالنظر إلى أن دارسي الثقافة قد حددوا منطلقاتهم المعرفية منذ البداية، وذلك برفض فكرة التخصص وفصل الأدبيات العلمية عن بعضها البعض، ومبرراتهم في ذلك تذهب إلى أن الفصل بين التخصصات هو فصل بين الأنشطة الإنسانية التي تتسم أصلا بالتداخل، ولا يمكن بأي حال كذلك فصلها عن سياقها أو التنظير لها بعيدا عن ممارساتها الفعلية في الحياة اليومية[1].

إن هذه النظرة التكاملية تزيد بالنسبة لنا من مشقة إيجاد تصنيف لما يمكن اعتباره تيارات نظرية أساسية في حقل الدراسات الثقافية، ولكن يمكن القيام بهذه المهمة بالبحث عن الخيوط العامة الأساسية التي يمكن عبرها تقسيم الأفكار الأساسية للدراسات الثقافية بعيدا عن سرد الأسماء أو الأعمال التي أثرت الحقل برمته، وبهذا يمكن حصر مجال الدراسات الثقافية بين تيارين أساسيين: الاتجاه المعارض للاحتفاء بالثقافة الرفيعة أو ثقافة النخبة كما تتجسد في نصوص التراث الفني المعتمد في الأدب الإنجليزي أو الموسيقى التقليدية مثلا، ثم الاتجاه الأكثر

[1]- محمد بوعزة: "الدراسات الثقافية: مسارات وإبداعات"، في: مبارك الجابري (محرر): خارج الأسوار: أوراق في الدراسات الثقافية، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، مسقط، 2022، ص 39.

وضعية المستمد من العلوم الاجتماعية وبصفة خاصة الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم اجتماع الثقافة[1].

هذا التصنيف على عموميته يرسم لنا معالم الأفكار الأساسية مربوطة بمصادرها النظرية الكبرى، وهو في النهاية لا يسمح بالتعرف بشكل أكثر دقة على الكيفية التي توزعت بها المجهودات الكثيرة والمختلفة ضمن حقل الدراسات الثقافية، ولهذا يمكن أن نلجأ لتصنيف آخر يأخذ أكثر بالبعد التاريخي والجغرافي الذي تطورت ضمنه بحوث الدراسات الثقافية.

على العموم فإن أبرز تيار للدراسات الثقافة يتمثل في التيار البريطاني الذي يجسده جيل التأسيس ضمن معهد برمنغهام، وقد كان لهذا الجيل من هوغارت وويليامز إلى هال وغيره خصوصية بارزة، وهي ارتباطهم بالماركسية واستفادتهم من أعمال كل من الفيلسوف الفرنسي لويس ألتوسير والإيطالي أنطونيو غرامشي. وفي الحقيقة فإن الدراسات الثقافية البريطانية لم تكن سوى ماركسية متخفية على اعتبار أنها أحيت الافتراضات الماركسية القديمة بخصوص الطبقية والصراع، بل وأضافت لها بأن ساحة الصراع الأساسية هي الثقافة[2]. ولا يتردد ستيوارت هال ذاته في التأكيد على أن نشأة الدراسات الثقافية كانت بتأثير واضح من الماركسية، فهو يعترف بأنه شديد التأثر بالقضايا التي وضعها الماركسيون على أجندتهم بوصفها مشروعا نظريا، إذ يقول: "كنت متأثرا بشدة بقضايا السلطة، وإمكانيات رأس المال على الوصول العالمي وخلق التاريخ وقضية الطبقة والعلاقات المعقدة بين السلطة وبين الاستغلال وقضية النظرية العامة التي تستطيع بطريقة نقدية أن تربط بين مختلف مجالات الحياة والسياسة والنظرية"[3].

ويشارك أغلب الباحثين الأوائل في حقل الدراسات الثقافية ستيوارت هال هذا التأثير، إذ كان المشرب الرئيسي الذي تغذى منه الجميع فكريا هو أفكار لويس ألتوسير وأنطونيو غرامشي كمجددين للتصورات الماركسية بتوجيهها أكثر نحو التركيز على البنية الفوقية كمحدد لحركة التاريخ، وليس البنية التحتية مثلما كان ماركس يقول.

وبانتقال الاهتمام بالدراسات الثقافية إلى خارج بريطانيا، نشأ ما يمكن أن نعتبره تيارا رئيسيا آخر، خصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية، أين تم تلقيح أجندة البحث بمواضيع جديدة

[1]- سمير الخليل: دليل مرجع سابق، ص 169.

[2]- زيودين ساردار وبورين فان لون: مرجع سابق، ص 58.

[3]- ستيوارت هال: مرجع سابق، ص 61.

تتلاءم والواقع الأمريكي، ولعل أبرز المواضيع التي تم طرقها العرق، الهوية، الأقليات... إلخ، بالإضافة إلى التركيز المكثف على دراسة تأثيرات وسائل الإعلام بالاعتماد على المنهج الإثنوغرافي.

والميزة الأساسية للتيار الأمريكي هي انفصاله من الناحية الفكرية عن التيار البريطاني، فقد نجحت المؤسسة الليبرالية في احتواء الدراسات الثقافية وقامت بتنقيتها من الأفكار الماركسية المتشددة في نظرها، ولذلك فقد خلت الدراسات الثقافية الأمريكية من مناقشة مسائل عديدة على غرار مسألة العدل السياسي، وفقدت قضايا السلطة والسياسة والطبقية مغزاها في رحلتها من ضفة الأطلنطي إلى الضفة الثانية[1]. هكذا إذن ظهر تيار الدراسات الثقافية الأمريكية متجردا عن أي التزام سياسي تحت تأثير الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في العالم من الحرب الباردة إلى سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفياتي، ولكن على الرغم من ذلك فقد نجح هو الآخر في إنتاج الكثير من الأفكار والقراءات الجديدة للممارسات والأفعال الثقافية.

وعلى مقربة من الولايات المتحدة، نشأ تيار للدراسات الثقافية بكندا حاول الاستفادة مما طوره التيار البريطاني، ولكن مع تكييفه مع واقع كندا كدولة متعددة العرقيات والثقافات، ولهذا فقد خصص دارسو الثقافات الكنديون جل مجهودهم لفهم ما أسموه بـ"التجربة الكندية" في استهلاك المنتجات الثقافية الأمريكية وكيفية مقاومتها لها من أجل حفظ الهوية المحلية[2]. وفي الحقيقة فإنه يمكن القول بأن التيار الكندي هو تيار عالمي اشتغل عليه أغلب الباحثين في العالم في ظل توسع الإمبريالية الثقافية الأمريكية في السبعينيات والثمانينيات، والكل كان يفكر بطريقة أو بأخرى في كيفيات مقاومة هذا المدّ الجارف المهدد للخصوصيات الثقافية للدول والمجتمعات والأقليات.

ولم تشذّ الدراسات الثقافية الفرنسية عن هذه القاعدة، حيث تناولت بالبحث هي الأخرى مشكلة الهوية الفرنسية في أعقاب سلسلة أحداث تاريخية متتالية كهزيمتي حربي فيتنام والجزائر، وتهديدات التفكك الثقافي من خلال ثورة سكان كورسيكا وبريتاني مع تحول فرنسا إلى دولة استقطاب للمهاجرين، وبالتالي فقد استحالت مشكلة هوية فرنسا إلى معضلة متفاقمة بالنسبة لدراسي الثقافة[3]. لكن ينبغي الإشارة هنا إلى خصوصية مهمة جدا للدراسات الثقافية الفرنسية، فهي على خلاف الكندية والأمريكية تستند على تراث نظري ومنهجي قوي للغاية أساسه هو ما يعرف بالنظرية الفرنسية، مجسدا في الفكر ما بعد البنيوي الذي تدافع عنه أعمال ميشال

[1]- زيودين ساردار وبورين فان لون: مرجع سابق، ص 62.

[2]- المرجع نفسه، ص 66.

[3]- المرجع نفسه، ص 70.

فوكو، رولان بارت وبيير بورديو، والتي تشكل عمودا فقريا للدراسات الثقافية برمتها، وليس الفرنسية منها فقط.

2- الإشكاليات المنهجية في الدراسات الثقافية:

من الناحية المنهجية، يصعب تحديد عدة منهجية دقيقة يمكن أن نحصر الدراسات الثقافية داخل إطارها، ولهذا يطرح ستيوارت هول سؤالا مهما للغاية حين يسائل الدراسات الثقافية بوصفها ميتا-خطابا، فيقول: "هل يمكن القول أن الدراسات الثقافية ليست مجالا معرفيا مشرطنا policed؟"، ويستمر في مناقشة هذا السؤال بإحالتنا إلى عدة مفاهيم تبرز درجة الانفتاح المنهجي والنظري الذي يصل لحد أن يصبح أقرب إلى شكل من أشكال الحرية الاجتماعية والسياسية من خلال استناده إلى مواقف أكثر من معارف ثابتة[1].

بناء على هذا، ليس من السهل الحديث عن منهجية واحدة وواضحة للدراسات الثقافية، فهي تشتغل كل ما يتاح لها من أدوات منهجية لتحقيق غايتها النهائية، وهي الوصول إلى فهم الديناميكيات الثقافية في المجتمعات المعاصرة، لا من خلال الوقوف داخل حدود النصوص الثقافية، وإنما بالذهاب إلى خارج النص.

وحتى في المناطق خارج النصوص، لا تكتفي الدراسات الثقافية بتقليد ما يفعله النقد الثقافي، فيشير سمير الخليل إلى أنه إذا كان النقد الثقافي يتعامل مع النص على أنه يتضمن نسقا مضمرا ما ورائيا لا يظهر على سطحه، فإن الدراسات الثقافية تؤكد حضور الظواهر الثقافية داخل النصوص كنسق ظاهر وتسائل أبعد من ذلك سياقاتها الثقافية والاجتماعية وعلاقاتها المتشابكة مع إشكالية السلطة والهيمنة، بل تتحول من الناحية المنهجية إلى شكل من أشكال معارضة الواقع المتسم بالهيمنة[2].

لا تستقر الدراسات الثقافية على قاعدة منهجية واضحة مثلما لا تحدد لنفسها موضوعا واضحا مثلما يقول ريتشارد هوغارت ذاته[3]، لذلك فهي تتبنى إستراتيجية منهجية قائمة على الانفتاح على كل الترسانات المنهجية التي تساعدها على مقاربة كل النصوص والعمليات الثقافية المحملة بالمعاني، وفي سبيل ذلك، دخلت الدراسات الثقافية في خلافات فكرية ومنهجية مع كل

[1]- ستيوارت هال: مرجع سابق، ص 59.

[2]- سمير الخليل: المرجع السابق، ص 166.

[3]- محمد بوعزة: مرجع سابق، ص 25.

التخصصات السائدة، بل وصل الأمر من جراء عدم انضباطها المنهجي إلى حد الحكم عليها بأنها "ملتقى للعلوم خارج عن القانون" على حد وصف كل من جيمس شووخ وميمي وايت[1].

يذهب محمد بوعزة في وصف آخر للمشكلة المنهجية للدراسات الثقافية، فيشير إلى أن ما يحكم هذا الملتقى المعرفي منهجيا هو باراديغم التحول، وليس باراديغم الثبات، إذ على خلاف بقية العلوم لم يتم غلق الباب أمام أي خيار منهجي بإمكانه أن يساعد على الوصول إلى معارف ذات قيمة[2]، ويصرف بوعزة بعض الجهد في بيان كيف بدأت أعمال الجيل الأول لمعهد برمنغهام مستعينة بالجمع بين نموذجين معرفيين مختلفين منهجيا هما الثقافوية culturalism وماركسية ألتوسير وغرامشي، مما أفرز ما يعرف في بريطانيا بالثقافوية اليسارية التي تمثلها أعمال هوغارت، ويليامز وتومسون، ثم جاء التحول الأول من خلال اعتماد ستيوارت هال على المنهجية الأركيولوجية المستعارة من أعمال ميشال فوكو، وتلاه التحوّل الثاني ببروز ظاهرة وسائل الإعلام ومنتجات الثقافة الجماهيرية التي أضحت ضمن الحياة اليومية الناقل الأساسي للفعل الثقافي المعاصر.

ساهم ظهور وسائل الإعلام منهجيا في حدوث نقلة مهمة، حيث أضحت مهمة الدراسات الثقافية لفهم علاقات الثقافة بالقوة منصبة على إجراء تحليل مزدوج: تعرية عمليات السلطة في ممارسة الهيمنة الثقافية من جهة، واقتفاء الإستراتيجيات الثقافية المضادة التي تنطوي عليها النصوص والثقافات المهمشة[3]. يتطلب مثل التحليل المزدوج اللجوء إلى عدة منهجية ثرية ومتشعبة على الرغم من مركزية التحليل النصي على الدوام في مجال الدراسات الثقافية.

ويقدم لنا باولو سوكو في كتابه المعنون بـ"إجراء البحث في الدراسات الثقافية"[4] قائمة بالكثير من المناهج التي يعتمدها المشتغلون في هذا الحقل المعرفي المفتوح، وتمتد محتويات هذه القائمة من منهجيات دراسة التجربة المعاشة كمنهج وصف المقاومة المعاشة والإثنوغرافيا، وصولا إلى المنهجيات التي تتعامل مع الخطابات كتحليل الخطاب والتحليل الإيديولوجي والتحليل الجينيالوجي والتفكيك، وختاما بمناهج تحليل السياق العام كمناهج تحليل الواقع وتحليل الفضاءات.

---

[1]- James Schwoch & Mimi White: "The Questions of method in cultural studies", in. Mimi White (ed): Questions of method in cultural studies, Blackwell Publishing, Malden, 2006.

[2]- محمد بوعزة: مرجع سابق، ص 29.

[3]- المرجع نفسه، ص 36.

[4] - Paulo Saukko: Doing research in cultural studies, Sage Publications, London, 2003.

ويمثل النقد أحد أهم الأدوات المنهجية التي تعتمدها الدراسات الثقافية في مقاربة مواضيعها، ويجب التنويه هنا إلى أن استعارة منهجية النقد من خلال التحليلين النصي والاجتماعي من المدرسة النقدية لا يعني تطابق وجهات النظر بين أنصار الدراسات الثقافية وبين مشتغلي مدرسة فرانكفورت مثلا، فإذا كان هؤلاء ينطلقون من النظر إلى الثقافة الجماهيرية باعتبارها شرا مطلقا، فإن أنصار الدراسات الثقافية بالمقابل يحاولون الغوص في الفاعلية النقدية التي يبديها الأفراد في تلقيهم للثقافة الجماهيرية، ومن ثمة فهم يفرقون بين تلقي السلعة الثقافية من جهة واستخدامها من جهة ثانية في شكل ثقافة مضادة[1].

ولعل أبرز من شرح منهجية الدراسات الثقافية في استخدام النقد هو ستيوارت هال، إذ يعتبر التأمل النقدي هو السبيل الأمثل للوصول إلى تحقيق أحد أهم أهداف الدراسات الثقافية، وهو تأسيس نظرية عامة تلتقي فيها النظرية مع الممارسة، وذلك عبر الربط بين القضايا الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية[2]. ولا يتوانى هال وغيره من مزاولي الدراسات الثقافية في الاستعانة بالتراث المنهجي الماركسي في سبيل تحقيق هذا الهدف، وهو التراث الذي يسعى للدوام لإنشاء رابطة بين النظرية والممارسة ولو تطلب الأمر اتخاذ مواقف من أجل تصحيح الأوضاع، وهنا يقع الاختلاف بين المناهج النقدية وبين المناهج الوضعية التي تقف عند حدود عمليات الوصف دون الخوض فيما وراء الواقع.

قراءات إضافية:

- خالدة حامد (مترجمة ومحررة): غبش المرايا: فصول في الثقافة والنظرية الثقافية، منشورات المتوسط، ميلانو، 2016،

- سايمون ديورنغ: الدراسات الثقافية: مقدمة نقدية، ترجمة: ممدوح عمران، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2015.

- مبارك الجابري (محرر): خارج الأسوار: أوراق في الدراسات الثقافية، الجمعية العمانية للكتاب والأدباء، مسقط، 2022.

- Mimi White (ed): Questions of method in cultural studies, Blackwell Publishing, Malden, 2006.

- Paulo Saukko: Doing research in cultural studies, Sage Publications, London, 2003.

[1]- محمد بوعزة: مرجع سابق، ص ص 36-37.

[2]- ستيوارت هال: مرجع سابق، ص 61.